تعريف بالكتاب

الن جلاسجو مؤلفة « المضحكين الرومانسيين » أستاذة من كبار أساتذة الفن المعروف فى الآداب الغربية باسم الهجاء الاجتماعى ، أو النقد الاجتماعى على الأصح ، لأنه لا يشتد أحيانا شدة الهجاء بمدلوله فى اللغة العربية .

وللنقد الاجتماعى موضوع واحد لم يتغير منذ أقدم عصوره فى الآداب اليونانية الى أحدث عصوره فى آداب الزمن الحاضر ، وذلك هو موضوع الكشف عن أسرار النفاق فى أخلاق الفرد وتقاليد الجماعة .

والنقد الاجتماعى ـ بهذه المثابة ـ موضوع واحد ، ولكنه على وحدته أساليب لا تحصى ، بحسب بواعثه من وجدان الكاتب وأغراضه التى يقصد اليها أو تتحقق بغير قصد منه اذا هى أثرت أثرها بين قرائه .

فمن النقاد الاجتماعيين من يكشف عن عيوب الناس المستورة ويخيل اليك ـ وأنت تتأمله ـ أنه يكشفها على الرغم منه ، ويود بجذع الأنف لو أنه جهلها ولم يتعرفها ، وشعوره من جراء اصطدامه بتلك العيوب كشعور الأب حين يطلع على عيوب أبنائه وهو يكره أن يطلع عليها ، ويود لو أمكنه أن يتجاهلها ، أو يغالط نفسه فيها .

ومن النقاد الاجتماعيين من يخيل اليك أنه على نقيض ذلك يبحث عن العيوب ويغتبط بالعثور عليها ، وتشعر كأنه يلتفت اليك كلما افتضح بين سطوره عيب من تلك العيوب ليقول لك : ألم أنبئك أنهم كاذبون منافقون ؟ وأنهم خادعون يستحقون الفضيحة ولا يؤمنون ؟ ... وربما سمى هؤلاء الكتاب بالكلبيين Cynics اذا كان ولعهم بكشف الفضائح من قبيل الولع باثبات الخسة والاسفاف ، وكان العثور على تلك

• الفضائح دليلا على ارتياح مطبوع الى تتبع العـــورات والخبـــائث التى تعافها الطباع •

ومن النقاد الاجتماعيين من يخيل اليك أنه يكشف تلك الخطـــايا وهو يشيح بوجهه ، أو يبتسم بينه وبين نفسه ، وكأنه يداعب صديقا يستتر عنه وهو لا يبالى ان يتكشف أمامه ، أو كأنـــه يداعب طفـــلا يتخابث عليه ، ويعجبه منه أن يحتال لمداراة قصـــده ويظن بنفســـه القدرة على خداع غيره !

ومن النقاد الاجتماعيين من يصطنع فى الكتابة صنيع المقـــامر الذى يقال عنه انه يلعب على المكشوف ، لأنه يستطيع الكشف كما يستطيع المداراة •

وتتباعد المقاصد والأهداف كما تتباعد البواعث والنيات •

فمن النقاد الاجتماعيين من يكتب ليرسم الصورة الباطنة كما يرسم الفنان صورته الظاهرة ، ولا يزيد على ذلك شـــيئا يطلبـــه غير الأثر الطبيعى الذى يحدث على غير قصد من المصـــور ، أو ممن ينظرون الى صوره •

ومنهم من يكتب ليصلح العيوب التى ينبه اليها ، ومنهـــم من يكتب لينفس عن صدره ويبوح باسرار وجدانه كأنه يجلس الى كرسى الاعتراف حين يجلس الى مكتبه •

ومنهم من يكتب ليبدى عطفه على أبطاله وبطلاته ويبدى ما يستحقونه من العطف عند قرائه ، ويسجل حالة يتنكر لها المجتمع ومن حقهـــا أن تؤخذ مأخذ المسالمة والعذر فى طريقها الى الزوال •

والكاتبة التى ألفت قصة المضحكين الرومانسيين ناقدة اجتماعيـــة من طريق السخرية الطيبة ، والمعذرة السمحة ، أو كمـــا قال الأستاذ آدامز فى الحوار التالى : « ان لديها احساسا بمأساة الحياة : احساسا عميقا جدا ، الى جانب براعتها فى السخرية » •

ويلتمس لها زميله الأستاذ بيترسون معذرة يقبلها القراء من مؤلفيهم

الساخرين اذ يقول : « انك اذا أردت أن تحطم قانون طبقة راقيـــة بتقاليدها القائمة على النفاق ، حيث يخفى كل شخص أحاسيســه خلف قناع حديدى ليحول دون اكتشافها ، فمن الواجب أن تستخدم كل سلاح مستطاع ، وأعتقد أنها تستخدم هنا سلاح اثارة الشفقة على أبطالها » .

الا أن هذا الغرض لا يظهر فى جميع رواياتها ، أولا يظهر على وجهـه الأكمل فى هذه الرواية بعينها ، كما عقب الأستاذ بريزون على ملاحظـة زميله فقال : « ربما كان هذا صحيحا ، ولكننى لا أحس وجوده فى هـذا الكتاب » .

لكن اختفاء الغرض لا يمنع أن تكون الكاتبة مشفقة فعـلا على بطل الرواية ، وأن يكون استحقاقه للشفقة قد أبقى أثره فى نفوس القراء ، وان لم يكن ذلك البطل قد انتفع بالدروس التى عرضته للشفقة كما عرضته للسخرية والاستهجـان ... وقد آل الأمر بذلك البطل أن ينزوى فى السادسة والستين الى عزلة « نتوقع أن تكون عزلة الشيخوخة الخامدة ، ولكن الربيع ينبض مرة أخرى فى عروقه فى نهاية القصة ، فاذا هو كما يقول ـ لا يزال يحس رقة النسيم ، ويصغى الى همسات أوراق الربيع » ولا يبالى أن يراجع غرامه الذى خيبته التجربة فى السنة الماضية ، لأنـه يحس آنه يحب الجمال فى هذا الربيع كما كان يحسـه فى ربيع تلك السنة .

فهذا بطل من أبطال القصة لم ينجح فى احساسه بالسـخرية التى استحقها ، ولكن الكاتبة ـ على ما نحسب ـ قد نجحت فى تعريضـه للسخرية وتعريضه للشفقة معا عند أبناء جيـله الذين أوشـكوا أن يتحولوا عن نفاقه الاجتماعى ، ووجب أن يكونوا صرحاء مع أنفسهم ومع الناس ، وهم يصنعون مثل صنيعه ، ولكن أمام الستار .

ولم تعوز الكاتبة أسباب السخرية من حولها ، لأن هذه الأسباب فى الواقع كانت أوفر وأوفى مما يحتـاج اليه القلم الواحـد ، أو الأقلام الكثيرة ... لأنها عاشت فى الجنوب الى نهاية الحرب العالمية الثانية على

وجه التقريب ، وشهدت بعينها ، بل اشتركت بتجاربها ، فى طائفة من النقائض النفسية والعقلية والخلقية تكفى كل واحدة منها لتزويد الكاتب بمادة يشغل بها الروايات ولا تستنفدها الرواية الواحدة .

فهناك التناقض بين المجتمع الزراعى بالأمس والمجتمع الصناعى اليوم .

وهناك التناقض بين تقاليد الأسر « الأرستقراطية » وتقاليد الجماعات الديمقراطية الشعبية .

وهناك التناقض بين العصبية الجنسية منذ الحرب الأهلية والمساواة الجنسية بعد الحربين العالميتين .

وهناك التناقض بين هذه التقاليد جميعا فى عهد العزلة عما وراء العالم الجديد ، وبين هذه التقاليد بعينها بعد الاتصال بالمشرق والمغرب واشتراك الجنوب والشمال فى الميادين وفى العلاقات العالمية .

واذا انتهينا الى الأفراد من أبطال الروايات فهناك التناقض بين موقف الشيخ وغرام الفتى والفتاة ، وبين وقار المنصب القضائى والرياسة الاجتماعية وبين مساومات العيش ومظاهر النادى والبيت والطريق .

والكاتبة القصاصة من صميم الطبقة الاجتماعية التى تمثلت فيها كل هذه النقائض على أعمقها وأقواها ، وهى الطبقة الأرستقراطية .. ولكنها استطاعت أن تعالج ذلك النفاق بالصدق والأمانة وان لم تستطع أن تهاجمه هجوم العداء والبغضاء . فكان ذلك عصمة لها فى الزيغ الذى ينساق اليه كل كاتب لا يملك استقلاله بين الطبقات ، ولا يشعر بالرفق الواجب وهو يعالج مواقف النفاق التى تستحق من رفقه ما يستحقه الضعف الانسانى على العموم .

نعم قد استطاعت مؤلفة الرواية أن تملك استقلالها بين عيوب طبقتها وانتقاد المنتقدين لها من غير أهلها ؛ لأنها هى نفسها قد كانت ضحية من ضحايا التقاليد الأرستقراطية فلم تتعصب لها تعصب الهوى ، ولم تقس عليها قسوة العداء . وقد أصابتها تلك التقاليد فى أعز شىء لديها

وهو ملكة المعرفة والشوق الى الحياة الفنية ؛ فان جامعات فرجينيا كانت تأبى على المرأة أن تتفرغ لعلومها التى تتقدم بها الى شهاداتهـــا ، ولكن الفتاة المشغوفة بالأدب والفن لم تنقطع عن طلب المعرفـــة فى غير حجرات الدراسة ، وحصلت منها ما كانت تشتاق الى تحصيله وهى غنية عنـــه فى حياتها البيتية ، ولعل هذا الاصرار على الكفآية الجامعية كان ضريبتها التى لزمتها من ضرائب التقاليد الأرستقراطية ؛ لأنها كانت غنية عنهـــا لو شاءت أن تحترف حرفة القلم كما احترفها غيرها بغير شارة « معترف بها » من شارات السمت والوجاهة ... فهى تحطم القيود بالقيود وتهوى بالمعول على الجدار وهى قائمة على الأساس .

توفيت هذه الكاتبة النابغة منذ سبع عشرة سنة (١٩٤٥) . ويقول الأستاذ بريزون فى مطلع الحوار : انها ربما كانت « تعـــانى من هبوط منزلتها الأدبية كما يحدث عادة لكبار الكتاب بعد وفاتهم بسنوات ، وأظن أنه قد حان الوقت لنحاول أن نحدس : متى تتخلص من هـــذا الهبوط ، وهو ما سيحدث على ما أعتقد ، وأن نحدس الى أى مكانة سوف تصل فى المستقبل ، وفى أى صورة سوف يذكرها الناس » .

ولا حاجة الى انتظار الغيب المجهول ؛ لأن المعلوم من سوابق الشهرة أن الجانب الانسانى الذى يستقل عن الطبقة المحصورة ، وعن الحقبـــة المحدودة ، وعن البيئة الموقوتة باق فى عالم الآداب والفنون لا يسرع اليه الزوال ، فاذا كان اهتمام الناس بكشف النفاق فى بيئتها قد زال أو كاد ، فربما استغنى الناس عن طلب هذا « الموضوع » من روايات الكاتبـــة ، ولكنهم لا يستغنون أبدا عن صورة انسانية صادقة وراء كل موضـــوع أصيل ، ولا يزال لصاحبة « المضحكين الرومانسيين » أمل فى البقـــاء لايحده من المستقبل الا ما يحد كل بقاء مقدور للأديب ، ولعمل الأديب .

عباس محمود العقاد